

أبو شعيب الدكالي

رائد الاصلاح الفكري في المغرب الحديث

عباس الجراري

لكي نفهم الدور الكبير الذي قام به أبو شعيب الدكالي، لا بد أن نعرف الظروف العامة التي ظهر فيها، حتى نتمكن من تحديد مكانة هذا الدور وأهميته. وأول ما تجدر الإشارة إليه أن المرحلة التي نسميها المرحلة الحديثة في تاريخ المغرب نحددها في الدرس الأدبي — اتفاقا — ببداية عهد يؤرخ له باحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830.

ابتداء من هذا التاريخ، تعرض الفكر المغربي، بل تعرض المغرب كله لاختبار شديد سواء على الصعيد العسكري أو الفكري، وكذا على مختلف المستويات التي ستمتحن فيها هذا الفكر، بل ستختبر فيها جميع بنيات المغرب وهياكله السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

حين احتلت فرنسا بلاد الجزائر، وقف المغرب — بحكم روحه الاسلامي ومواقفه المعروفة وشجاعته المعهودة ومساندته الدائمة لآخوانه — إلى جانب الجزائر. ولكن هذا الموقف المشرف جعل فرنسا تضيق به، واعتبرت أن المغرب باتخاذ، خرج عن الاتفاقيات التي كانت تربط بين البلدين بأواصر الود والتعاون. ومن ثم أعطت لنفسها الحق والحرية في أن تحرق هذه العلاقات وتتدخل بواسطة الجيش. وبالفعل في عام 1844 كانت حرب ايسلي التي هزم فيها المغرب. وبعد سنوات قليلة وبالضبط عام 1859، حاولت اسبانيا أن تجرب حظها لتضرب المغرب، مما جعله يواجه تحديا ثانيا كانت نتيجته احتلال مدينة تطوان لمدة سنتين.

كانت هذه الأحداث بمثابة اختبار عسكري كشف — في الداخل — عن ضعف البنيات التي لم تستطع أن تواجه دولتين كبيرتين : فرنسا من جهة واسبانيا من جهة

أخرى. وكانت تلکم بداية تلتها أزمات متعددة أفرزت مشاكل كثيرة عاناها المغرب، كمشكل الحمايات الأجنبية والديون وما إليها من ظروف صعبة تحبط فيها طوال النصف الثاني من القرن الماضي وأول القرن العشرين.

ومن حسن حظ المغرب أن الملوك الذين تعاقبوا في هذه المرحلة — ابتداء من المولى عبد الرحمن إلى سيدي محمد بن عبد الرحمن فالمولى الحسن الأول — كانوا ملوكا كبارا. ولهذا استطاعوا أن يواجهوا الأزمة الشديدة الخائفة التي كانت تهدد المغرب في سيادته، وحاولوا أن يقوموا بعمليات إصلاحية. والمفكرون المغاربة كانوا يكتبون ويساعدون في تصور الإصلاح الذي يمكن أن ينقذ المغرب من الظروف الصعبة التي يتخبط فيها. ومن ثم وجد من العلماء من كتب في إصلاح الجيش ومن تناول إصلاح الإدارة، ومن بحث في موضوع الحمايات الأجنبية التي كانت منتشرة، إلا أن الأزمة كانت أقوى من كل هذه المحاولات. ومع ذلك، استطاع المغرب بفضل هؤلاء الملوك — ولا سيما الحسن الأول — أن يرد الخطر أو أن يؤجل حدوث كوارثه. ولهذا، وعلى الرغم من كل التحديات، ظل المغرب محافظا على سيادته إلى سنة 1912 حين عقدت الحماية. والحقيقة أن المغرب بهذه الوثيقة لم يفقد سيادته، ولكن قبل أن يكون محميا لدولة أخرى تساعده على تنظيم نفسه، وخاصة في المجالات الأمنية والمالية.

هذا هو الظرف الذي ظهر فيه الشيخ أبو شعيب الدكالي، وهو ظرف صعب ومتأزم. لست أود هنا الحديث عن حياته فالجميع يعرف قليلا أو كثيرا عن هذه الحياة ولكنني أريد فقط أن أطرح بعض الملاح التي تساعدنا على أن نتصور دوره باعتباره رائدا لإصلاح، وهو دور ثقافي فكري كان الرجل مؤهلا للقيام به. كيف كان مؤهلا؟ هناك جملة ملاح يمكن أن أطرحها عليكم، كلها تبرز هذه الأهلية التي كانت للدكالي.

أبو شعيب — كما تخبر ترجمته — ولد سنة 1295 هـ أي في الأزمة المذكورة، ولكنه ظهر بنبوغ مبكر، وهو نبوغ يكفي أن أشير إليه من خلال حادثة بسيطة — حادثة علمية — وقعت له وهو طفل صغير وعمره يومئذ لا يتجاوز الثلاثة عشر عاما إذ وقعت بالضبط سنة 1308 هـ. وتتلخص في أن القصر الملكي — بأمر من الحسن الأول — أعلن عن مباراة في حفظ «مختصر الشيخ خليل» المعروف في الفقه المالكي والمتداول في حلقات الدرس إذ ذاك، وأنها ستجري بقصر مراكش.

تقدم عدد من المرشحين كان من بينهم الطفل الصغير أبو شعيب الدكالي، ونجح في المباراة، إذ تبين أنه يحفظ المختصر، إلا أن بعض أعضاء لجنة هذه المباراة أراد أن

يختبره اختبارا آخر، فسأله، «هل تحفظ القرآن الكريم». «أجاب»: «نعم وأحفظه بالروايات السبع». قال له: «اقرأ؟ فقرأ سورة الرحمن بجميع هذه الروايات. وصل الخبر على الفور إلى الحسن الأول الذي أمر بادخاله عليه، فأخذ بنظراته ونباهته وبداهته، وبعلمه الذي تجلى في قوة الاستظهار والحفظ. وأراد مداعبته والزيادة في اختباره، فقدم له سؤالا في النحو، اذ طلب منه أن يعرب جملة هي «المران حلو حامض» قصده أن يطرح معه قضية معروفة في النحو تتعلق بالخبر حين يتعدد بالنسبة لمبتدأ واحد. أجابه الشيخ — بل الطفل — أبو شعيب الدكالي، بما أكد للسلطان معرفته ونبوغه. ثم أن الحسن الأول أراد أن يمازحه ويثيره فقال له: «أنت فقيه ولست بنحوي» «فأجابه»: «أنا أعلم بالنحو مني بالفقه، ولكنني أنشد لمولانا قول الشاعر:». وأنشد له بيتا فيه تلميح لما شعر به. يقول هذا البيت:

يداك يد للورى خيرها وأخرى لاعدائها غائرة

هنا تدخل بعض من كان حاضرا في المجلس وقال له: «أفصح؟ ماذا تريد أن تقول لمولانا؟» أجاب: «يكفيني أن أتلو قول الله تعالى: والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات». أعجب به السلطان أيما اعجاب، وضحك كثيرا، وأمر له بصلتين وكسوتين، وكتب له في توقيع ذكر الشيخ أنه يحتفظ به ويعتز: «يضاعف لأبي شعيب، لصغر سنه وكبر فنه».

اذن كان للدكالي نبوغ مبكر في سن الطفولة قبل أن يتاح له أن يرحل إلى الخارج. ذلكم أنه سافر إلى مصر وأخذ عن علماء الأزهر، وزاد فذهب إلى الحجاز وخاصة إلى مكة فأخذ عن علماء الحرم، واستطاع أن يبرز فقيها وعالما مشاركا مؤهلا لأعلى المناصب الدينية، وبالفعل عينه الأمير عون أمير مكة خطيباً في الحرم المكي، وعينه كذلك مفتيا للمذاهب الأربعة.

بهذا وغيره اكتملت شخصية الدكالي وقدراته العلمية، وعاد إلى المغرب، وتمت هذه العودة عام 1907 قبيل تولية السلطان المولى عبد الحفيظ. وحين أعتلى العرش في السنة الموالية، وكان عالما كبيرا كما كان ملكا كبيرا وان كانت الظروف يومئذ أقوى منه، قرب أبا شعيب وعينه في القضاء بمراكش، وأذن له أن يلقي الدروس في مدن متعددة، وخاصة في الرباط وفاس ومراكش، لأنه كان يدرك قيمته العلمية وقدراته الفكرية، ولأنه كان لاشك متجاوبا معه في النزعة الإصلاحية.

وقد تسنى للرجل أن يحتفظ بهذه المكانة في عهد المولى يوسف، وكذا في أوائل عهد الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه. وبعد القضاء أصبح وزيرا للعدلية،

وهو المنصب الذي به تسنت له الإقامة في الرباط. ومع هذه الوزارة كلف برئاسة الاستئناف الشرعي، بالإضافة إلى الدروس.

يتضح من هذا أن هناك جملة عوامل: النبوغ المبكر، والرحلة إلى الخارج للاستزادة مما في العالم الإسلامي واكتساب خبرات جديدة، ثم المناصب التي تولاها، كل هذه العوامل جعلته شخصية مهيأة للقيام بدور المفكر المصلح.

هنا نتساءل: أين يتمثل هذا الدور الذي قام به شعيب الدكالي؟ وكيف نهض به؟ ونجيب على الفور بأنه دور فكري بالدرجة الأولى. ولو أردنا أن نعبر عنه في جملة تلخص ماهيته من خلال العمل الفكري الذي قام به الرجل وما يميزه لقلنا في كلمة إنه الإصلاح والسلفية.

ولكن كيف أبرز دوره باعتباره رائد الإصلاح ورائد السلفية؟ وكيف قام به؟ الاجابة غير صعبة، لأن الأمر تم له عن طريق التدريس. هنا تطرح العلاقة بين تدريس الدكالي ودوره باعتباره زعيما سلفيا ومفكرا اصلاحيا، ومعها يطرح التساؤل الآتي: كيف استطاع النهوض بهذا الدور عن طريق التدريس؟

أبو شعيب الدكالي درس علوما كثيرة، ابتداء من النحو إلى الفقه فالقرآن، ولكن هناك بعض العلوم التي ارتبطت بترككم الرسالة الإصلاحية، وقلما ينتبه الناس إليها. درس التفسير، والذين تلمذوا عليه وعاشوا في هذه الفترة يعرفون أن التفسير لم يكن يدرس في المغرب. لماذا لم يكن يدرس؟ يبدو أن دراسته توقفت في عهد مولاي سليمان الذي نعرف جميعا أنه كان معجبا بالشيخ أحمد التيجاني. ومرة كان هذا الشيخ في فاس ودخل إلى بعض المساجد، فوجد أحد العلماء — هو الشيخ الطيب بن كيران — يدرس التفسير. فقال للمولى سليمان مستغربا ومستنكرا:

«مثل هذا العالم يدرس التفسير؟ سيكون ذلك وبالا وخرابا على الأمة والسلطان».

توقف التفسير منذ ذلكم الوقت، وأصبح يقرأ تلاوة وسرداً وليس دراسة علمية. جاء أبو شعيب فأحى دراسته، وكان يدرسه بتفسير النسفي، وهو معروف. ومن خلال التمعن في القرآن الكريم وآيات الكتاب المنزل بعث وعيا فكريا جديدا، باعتبار الوحي القرآني أول مصدر في مسيرة التصحيح والتقويم، للعودة بالأمة إلى الطريق السليم، بعيدا عن الخرافات ومظاهر الشعوذة التي كانت شائعة يومئذ.

ومن ثم كان احياء دراسة التفسير لبنة أولى في عملية الاصلاح التي نهض بها أبو شعيب الدكالي، قواها بلبنة أخرى هي بعث الاهتمام بالسنة فأخذ يدرس الحديث. المغاربة في هذه الفترات المتأخرة لم يكونوا يتعاملون علميا مع الحديث النبوي، وانما كانوا يقرأونه كأن يسردوا صحيح البخاري أو مسلم مثلاً، دون اجراء الدرس المتمعن في اللفظ والسند وتناول الأحكام وغيرها. وهذا يعني أنهم كانوا يقرأون الحديث كما يقرأون القرآن، أي يتعبدون به فحسب، في حين أن الذي يُتَعَبَدُ به هو القرآن الكريم، وما سواه فإنه قابل للبحث والتحليل. جاء أبو شعيب الدكالي وأدخل دراسة علم الحديث، ودرس كتبه الستة غير مقتصر على الصحيحين. وعن طريق دروسه الحديثية التي كانت موزعة في كل مكان، وضع لبنة أخرى استطاع بها أن يفتح الأذهان وأن يبعث وعياً جديداً في الأمة.

لماذا أركز على دراسة التفسير والحديث ؟ هنا لابد من كلمة حول مفهوم السلفية. هذا المصطلح ينبغي الانتباه إليه، لأنه يستعمل في معنيين اثنين : يستعمل في معنى ايجابي كما هو السياق الآن ونحن نتحدث عن أبي شعيب الدكالي زعيم السلفية أو رائد السلفية. ويستعمل بمعنى قَدَحِي عند الذين يرفضون الرجوع إلى الماضي وإلى التراث، فكل ما هو رجعي أو مرتبط بالماضي يقولون عنه انه سلفي.

إذن ما معنى السلفية ؟ هي الرجوع إلى الأصول. ما هي الأصول ؟ بالنسبة للاسلام، وبالنسبة للفكر الاسلامي، الأصول هي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ولهذا كان الدكالي يركز على تدريسهما، ملحا على حك الفكر المغربي من خلال تفسير آية أو شرح حديث. وبذلك استطاع أن ييث الرأي السلفي في أبعاده الجديدة المتفتحة، بواسطة الرجوع إلى الأصل للتغلب على كل السلبات الذائعة، وعلى كل الشوائب التي تفتشت، وعلى كل البدع المنتشرة، وهو تطلب يقتضي الرجوع إلى الاسلام في نبعه الصافي وأصله الحق. ولهذا كان أبو شعيب الدكالي يركز على هذين المصدرين.

ثم إن أبا شعيب، وهو صاحب رسالة تهدف إلى التوعية وإلى بث روح جديد في المغاربة، لم يقتصر على دراسة العلوم الاسلامية مع التركيز على التفسير والحديث، ولكنه كان يدرس الأدب كذلك، إذ درس «أمالى أبي علي القالي» وهو كتاب في الأدب واللغة. سوف تقولون ان الأدب ليس شيئاً كبيراً. اليوم توجد احدى عشرة كلية للآداب في المغرب. نعم، ولكن في بداية القرن حين كان الدكالي يلقي دروسه في الأدب، كان هذا الفن لا يدرس في حلقات المساجد، وفي أحسن الأحوال، كانت

تستغل مناسبات كالمولد النبوي فتقرأ «البردة» و«الهمزية» و«بانت سعاد» وقد يشرحها بعض العلماء شرحا خفيفا. لهذا يعتبر حدثا كبيرا أن يأتي أبو شعيب الدكالي في أوائل القرن ويلقي، درسا في المسجد من هذا القبيل يستمر في إلقائه غير مقيد بموسم أو مناسبة.

بذلك يتضح أن فكر الرجل كان فكرا سلفيا اقتضاه الرجوع إلى الأصول، واقتضاه كذلك أن يلجأ فيه إلى التدريس، أي أن يتخذ التدريس وسيلة، لأنه لم يكن كاتباً. وحتى لو أنه أراد أن يكتب لأعوزته وسائل النشر، لأن المغرب في هذه المرحلة التي نحن بصدددها لم تكن متوافرة فيه الصحف والمجلات، ولم تكن المطبعة فيه نشيطة. ولهذا، وهو واع بالواقع، لجأ إلى التدريس باعتباره خيراً وسيلة للتبليغ. حين نقول التدريس ينبغي أن نفهم شيئاً، ذلكم أن التدريس لم يكن كما هو حادث الآن في صيغة تقتضي من فلان يشتغل معلماً في مدرسة ابتدائية أو مدرسا في ثانوية أو أستاذا في جامعة أن يكون له عدد معين من الحصص مضبوطة بساعات تشكل مجموع عمله الذي يتقاضى الأجر عليه. أبو شعيب كان وزيرا للعدلية، ولكن كانت عنده دروس تمتد من الصباح إلى المساء. وإذا سافر إلى مدينة أخرى، فإنه يلقي فيها دروسه.

في الرباط كانت له دروس رسمية، في الزاوية الناصرية، وفي جامع القبة، وفي سيدي العربي بن السايح، وفي مساجد وزوايا أخرى، مما يتعبر عملية جهاد علمي مستمر كان يقوم به الشيخ الدكالي. ولكن قد يقال : كان هناك علماء آخرون يشغلون أيضا مناصب ويقومون كذلك بالتدريس، ولم يكن لهم نفس الدور الذي كان لأبي شعيب. هذا صحيح، ولكن هناك عوامل ساعدت الدكالي على أن يقوم برسالته الإصلاحية. هذه العوامل المساعدة كثيرة، يمكن أن نذكر منها مثلاً : التفتح الذي تميز به. كان يوجد علماء كبار في ذلكم الوقت يدرسون، ولكنهم لم يكونوا متفتحين، علما بأنه كان في الرباط يومئذ علماء متخصصون كبار متميزون في نفس الوقت بالمشاركة في شتى المجالات العلمية الأدبية كأبي حامد البيطاوري ومحمد المدني ابن الحسن. كان التزمّت يطغى بصفة عامة على الفكر المغربي وعلى العلماء، ليس في فاس فحسب حيث جامع القرويين ولكن في مختلف المدن على الرغم من وجود بعض الاستثناءات كما ذكرت.

وقد اكتسب أبو شعيب تفتحاً من عناصر متعددة : أولاً بحكم ثقافته الواسعة، لأن الثقافة حين تتسع تساعد على تفتح الذهن. فالرجل لم يكن مجرد فقيه ولا مجرد محدث ولا مجرد مفسر للقرآن ولا مجرد قارئ أو مقريء لكتاب الله، ولا مجرد نحوي...

ولكن كان ذا ثقافة تتسم بعمق التخصص واتساع المشاركة. وزادت في هذه الظاهرة تلكم الفترة التي قضاها في الخارج، ولا سيما في مصر والحجاز. ولا ننسى بأن مصر في هذه المرحلة كانت تعيش حركة اصلاحية كبيرة، وهي الحركة التي برز فيها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ثم رشيد رضا. وقد استطاع الدكالي وهو يحتك بهذه الحركة أن يتأثر بها. خاصة وهو في عنفوان الشباب. وفي الحجاز حدث له نفس التأثير، اذ من المعروف أن الحجاز في هذه الفترة ومنذ عهد محمد بن عبد الوهاب المعاصر للمولى سليمان كانت تسير على المذهب الذي يسمى بالمذهب الوهابي. صحيح أنه وقعت فيه بعض الأشياء التي تتسم بالتطرف، ولكن بصفة عامة، محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى السنة وإلى العودة للأصول. وهذا ما جعل أبا شعيب الدكالي يستفيد كذلك من اقامته في الحجاز ومن احتكاكه بعلمائه.

ثم أن هناك عناصر أخرى ساعدت بدورها على قيام أي شعيب برسائلته الاصلاحية. فعلى الرغم من أنه كان وزيراً للعدلية، وعلى الرغم من أنه كان في عهد الحماية يتولى المسؤولية، فقد كان وطنيا. وهذا جانب قلما يتحدث عنه الدارسون. بطبيعة الحال، في هذه الفترة التي نبحثها، الوطنية ما زالت لم تولد بالمفهوم الحديث، أي بالمفهوم الذي ربطها بالعمل السياسي. ذلكم مفهوم لم يتبلور إلا في سنوات الثلاثين، وربما جاز التأريخ لبدائته بأحداث الظهير البربري. ولكن الوطنية التي نتحدث عنها كانت كامنة في الروح وفي العمق وفي الرسالة التي يقوم بها الشخص. ومع ذلك توجد مواقف تسجل لأبي شعيب تدل على وطنيته وعلى صرامته فيها. يذكر مرة أنه كان — وهو وزير — حاضرا في مأدبة إلى جانب المارشال ليوطي وهو أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب. ووضع على المائدة شواء أي كبش مشوي. فالتفت المارشال إلى الدكالي وقال له : «هذا النوع من الطعام لم يعد موجودا إلا في المغرب، أما في الجزائر فانهم لم يعودوا يعرفون ما هو الكبش المشوي» أجابه على الفور : «ياسعادة المارشال، ان بقيت فرنسا في المغرب، نحن كذلك سنفقد الكبش المشوي». فغضب ليوطي من كون هذا الفقيه الوزير يجيبه ويرد عليه بكلام فيه مس بفرنسا، يعني أنها ان استمرت فستجعل الأمة تفقد ملامح أصالتها. ومن مظاهر وطنيته كذلك نسوق هنا ما يقال من أنه طلب الاعفاء من الوزارة أو أقيل منها لأنه رفض أن يوقع قرارا بانشاء دار للبعاء في مدينة القنيطرة. رفض وأخذته الغيرة الاسلامية وامتنع ولزم بيته. الرجل إذن كان وطنيا بكل ما يفهم في الوطنية من حماس وروح وثبات على المبدأ وقول الحق وعدم الخوف من قوله.

ثم أن مما قرب الدكالي إلى الناس — وخاصة في بعض المدن، لا سيما الرباط التي أقام بها مدة طويلة — تلكم اللهجة التي كان بها يخاطب الناس ويؤدي دروسه، لأن هذه الدروس كان يحضرها العلماء والطلبة ويحضرها كذلك العوام. والذين عاشوا في هذه الفترة يقولون انه حين كان يقترب وقت دروس أبي شعيب، تمتليء الزاوية الناصرية عن آخرها، ويقفل الناس، دكاكينهم ليتمكنوا من الحضور. وهذا يعني أن الرجل كان له جمهور واسع، وأن هذا الجمهور كان مشدودا اليه. بطبيعة الحال كان هناك العلماء والطلبة الذين كانوا مأخوذين بعلمه ويستفيدون من هذا العلم، ولكن كان هناك كذلك الذين يعجبون به لأشياء أخرى تجذبهم فيه. من ذلك أن أبا شعيب كانت له نبرة صوتية خاصة، وكانت له لهجة متميزة، وكانت له صرامة في التعبير، بل كانت له تعابير ينزل فيها أحيانا إلى المستوى العامي لكي ييسط فكرة ما أو يقرب شرحا معينا للأذهان. في اعتقادي أن هذه المجموعة من العوامل — علمية وذاتية ووطنية وغيرها — جعلت من أبي شعيب الدكالي الشخص القادر على أن يبلغ رسالة إصلاحية، وأن يتوسل في تبليغها بطرق العلم والفكر.

بعد هذا يبقى سؤال : ما هو تأثير أبي شعيب الدكالي طالما أنه لم يحرق ولم يخلف لنا تراثا مكتوبا، وان كان ما قام به يتمثل في دروس ألقاها على امتداد سنوات عمره ؟ مامدى تأثيره إذن ؟ ولماذا نصفه بأنه رائد الإصلاح الفكري ؟

يمكن القول بأن تأثيره تم على صعيدين اثنين :

أولا على صعيد الرأي العام، لأنه كان عالما متصلا بال جماهير التي كانت تقبل على دروسه، أي أنه كان على التحام بها واحتكاك مباشرة. وهذا مهم بالنسبة للقيادة الفكرية بل بالنسبة للزعامة كيفما كانت، سياسية أو فكرية.

فأبو شعيب بطريقة تلقائية لا افتعال فيها ولا اصطناع، وبعلمه ولا خلاصه فيه وصدقه في أدائه، استطاع أن يجلب الجماهير لثلاث حوله، واستطاع عن طريق اتصاله بال جماهير أن يلقي الأفكار. هذا العنصر قد نستعين به اليوم، ولكن ينبغي أن نتصور المغرب في أوائل عهد الحماية كيف كان ؟ ليست هناك لا اذاعة ولا تلفزة ولا صحف وطنية، باستثناء جريدة «السعادة» التي كانت لسان حال حكومة الحماية والتعليم كان محصورا في الكتابات القرآنية وحلقات المساجد والزوايا، والعلماء يغلب عليهم التزمت ؟ والعوام غارقون في الشعوذة والانحراف، والحالة متأزمة على وجه العموم. وقد تعمدت أن أبدا محاضرتي بالحديث عن بعض جوانب هذا التأزم العام : عسكرية وسياسية

واقتصادية واجتماعية وثقافية. ولهذا كون أبي شعيب كان يخاطب مباشرة ولسنوات طويلة جماهير الأمة وبنبه إلى ضرورة العودة إلى الكتاب والسنة وضرورة الرجوع إلى الاسلام الصحيح، والابتعاد عن الخزعبلات والخرافات التي كانت منتشرة، كل ذلك يدخل في نطاق التوعية بفكر جديد لم يكن المغاربة يعهدونه من قبل، علما بأن التاريخ القريب يحمل بذورا سلفية غرسها ملوك مصلحون كسيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان.

هذا على صعيد الرأي العام، أما على صعيد الطلبة والعلماء، فقد خلف أبو شعيب الدكالي تأثيرا كبيرا تجلى في تلاميذه، أولئك التلاميذ الذين نهضوا بالرسالة الإصلاحية وحملوا أعباءها، سواء في مدينة الرباط التي استقر فيها واتخذ بها اقامته، أو في مدن أخرى كفاس ومراكش حيث وجد جيل من الطلبة الذين أخذوا عنه وتأثروا به، وربما ذكر بعضهم ونسي هو.

أما في الرباط فقد قام تلاميذه — وهم كثيرون — بنهضة فكرية متشعبة، هي في الحقيقة من غرس يده، وكان ذلك في وقت مبكر، أقصد في سنوات العشرين. حين نقول سنوات العشرين ينبغي أن نتمثل حال المغرب وفق ما سبقت الإشارة إليه. وغير خاف أنه منذ عقدت الحماية، والمغاربة يقاومون في البوادي والجبال وفي كل مكان. واستمرت المقاومة إلى سنة 1935. وحين وضعوا السلاح تحرك الفكر يحمل مشعل الكفاح في واجهات متعددة تصدى لها تلاميذ المدرسة السلفية، مما خلق نهضة كانت أساس كل ما عرفه المغرب بعد.

ما هي هذه النهضة؟ وما هي مظاهرها التي تجلت على يد تلاميذ أبي شعيب؟ أولا في مجال التعليم: الذين قاموا بإنشاء مؤسسات تعليمية عصرية أوائل سنوات العشرين كانوا من تلاميذه الذين تخرجوا من مدرسته مشبعين بفكره وبالوعي الجديد الذي بثه فيهم وتحملوا هم مسؤولية توسيع نطاقه. من مجموع تلكم المدارس الحرة، يكفي أن أشير في الرباط إلى مدرسة درب الزهراء والمدرسة المباركية والمدرسة العباسية.

المظهر الثاني كان كذلك في هذه الفترة المبكرة، ويتمثل في الكتابات السلفية ذلكم أنه وجدت نخبة من تلاميذ أبي شعيب تصدوا لاثهار السلفية والدفاع عن فكرها، ومحاربة الشعوذة والخرافات، وهو ما يسمى عادة بالحركة السلفية أو الصراع بين القديم والجديد، أو الصراع بين الطرقية والسلفية، أو المعركة بين الشيوخ والشباب.

على أنه لا ينبغي أن يفهم من طبيعة هذا الخلاف أن السلفيين كانوا ضد التصوف، بل أنهم كانوا متصوفة كذلك، وأبو شعيب الدكالي كان يحمل سبحة الذكر باستمرار. ولكن هناك فرق بين أن يكون الانسان متصوفاً وأن يكون مشعوذاً. ففي هذه الفترة من سنوات العشرين، كانت الشعوذة طاغية، والاستعمار كان يساعد على انتشارها. ولذلك تصدى العلماء السلفيون لتنقية الأفكار ولابعاد المظاهر الخرافية عن الدين الاسلامي. ومن ثم، فإن الشباب الذين دخلوا معركة السلفية ضد الطرقية لم يكونوا ضد التصوف، ولكن كان لهم موقف ضد المظاهر الخارجة عن الاسلام. وهذا يعرفه من عاشوا في تلك الفترة. من ذلك ما كانت تقوم به بعض الطوائف كحمادشة وعيساوة وما لها من الممارسات التي كانت شائعة يومئذ، والتي وقف العلماء الشباب ضدها على اعتبار أنها ليست من الاسلام ولا التصوف في شيء. ولعلي في غنى عن الإشارة إلى كثرة عدد هؤلاء الذين وقفوا يناهضون الطرقية ويقاومون الخرافات ويدعون إلى العودة بالاسلام إلى أصله.

ويكفي أن أذكر من بين أبرز التلاميذ الذين قاموا بالحركة السلفية في الرباط المرحوم محمد بن اليمنى الناصري وأخاه محمد المكي ووالدنا المرحوم عبد الله الجراري. هؤلاء تصدوا في تيار السلفية وفي تيار التجديد لمواجهة الذين كانوا يمثلون الاتجاه الطرقي. وقد كانوا — كما قلنا — تلاميذ ملازمين ومخلصين ينقلون الأفكار التي تلقوها عن أبي شعيب الدكالي، ويطورونها لتكيف مع المعطيات الطارئة في تلك المرحلة الحاسمة. هذه المعركة — وهي معركة كبيرة في تاريخ الفكر المغربي الحديث بحكم الواقع الذي كان يعانيه هذا الفكر كما سبق القول — كانت تجدها مجالاً في الجزائر حيث كانت الحركة الإصلاحية قوية كذلك، فكان كتاب السلفية ينشرون في مجلة «الشهاب» مثلاً، وكتاب الاتجاه الآخر ينشرون في مجلة «البلاغ».

إننا اليوم قد نستعين بهذا الدور الذي اضطلع به تلاميذ المدرسة السلفية، ومع ذلك تبقى قيمته الحقيقية، وهي قيمة كامنة ليس في الصراع الذي كان بين فئة تدعو إلى الرجوع للأصول، وفئة أخرى تدعو إلى التشبث بما هو سائد، ولكن في الروح الجديد الذي بعثته في العقل المغربي، هذا الروح الذي سوف يخرج من حيز الصراع بين فئتين تتناقشان حول حقيقة الاسلام إلى صراع من نوع آخر يتلاءم مع الظروف الجديدة التي أصبح يعيشها المغرب.

وكان أول اختبار للمدرسة السلفية — أي أول اختبار للمدرسة الشعبية — وتلاميذها على الساحة الوطنية هو حادث الظهير البربري الصادر في 16 مايو

عام 1930. ذلكم أن الذي تصدى له في بداية الأمر، ووقف يخاطب في الناس ويوعيمهم بخطر القضية، كان من تلاميذ الشيخ، هو الذي نادى بعقارة «اللطيف» التي غدت مشهورة، بل غدت سلاح المغاربة في كل أحداث المقاومة. وفيها يقول والدنا رحمه الله، «اللهم بالطف نسالك اللطف فيما جرت به المقادير ولا تفرق بيننا وبين اخواننا البرابر».

على أن أهمية أحداث الظهير البربري تكمن في أنه استطاع أن يخرج بالعمل الفكري الصرف إلى مجال العمل الوطني السياسي. من هنا فإن الظهير البربري يعتبر في الحقيقة نقطة تحول من العمل الثقافي الذي كان يقوم به العلماء في المساجد عن طريق بث الأفكار والتوعية إلى عمل له صبغة وطنية سياسية تتلاءم مع متطلبات المرحلة الجديدة وما أفضت إليه وضعية الاستعمار بعد أن أوشكت المقاومة المسلحة على أن تتوقف.

لم يقتصر الدور الذي قام به تلاميذ مدرسة أبي شعيب الدكالي على خوض المعركة السلفية وعلى البروز في الظهير البربري وعلى إحداث المدارس، ولكن تعدى ذلك إلى فتح آفاق جديدة أمام الفكر والابداع في المغرب، على الرغم من طغيان الجمود يومئذ، أقصد في سنوات العشرين. والمستغرب أن بعض تلاميذ الدكالي استطاعوا أن ينشئوا فرقا مسرحية، وأن يؤلفوا مسرحيات، وأن يتصلوا بالجمهور عن طريق المسرح.

فالمسرح الذي نعز اليوم بوجوده لم يكن موجودا ولم يكن الناس يعرفونه في تلكم الحقبة، فأن يأتي بعض تلاميذ هذه المدرسة ويكتبوا مسرحيات فيها قصص وطنية، وفيها توجيه للفضائل والأخلاق وحث على العلم، وفيها نتيجة ذلك مواجهة الاستعمار، كل ذلك كان شيئا مهما إلى حد بعيد.

ذلكم هو الدور الذي قام به أبو شعيب الدكالي، انطلاقا من ثقافته المتفتحة المتسعة، من تشبعه بالفكر الاصلاحى الجديد الذي أخذه مباشرة من منابعه. لكن حين نقول إنه أخذه من منابعه — أي من الحجاز ومصر — ينبغي أيضا أن نعرف أن المغرب كانت له مبادرات في مجال الفكر السلفى. إلا أنها مبادرات لم تتح لها فرصة الانطلاق. وقد سبق أن أشرت إلى أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان سلفيا، وأن السلطان المولى سليمان كان سلفيا كذلك، وهو صاحب رسالة كتبها ضد البدع ينتصر فيها للسننة، إلا أن ظروف المغرب التي كانت تتأزم يوما بعد يوم حالت دون أن تثمر هذه البذور لتنتج فكرا جديدا تتولد عنه مدرسة أو اتجاه حتى يكون فعالا.

ولهذا فان أبا شعيب الدكالي — بعلمه وتجربته وتفتحه وما اكتسبه من خبرة، وكذلك بالمدرسة التي أنشأها، وبالتلاميذ، وبالوعي الذي خلفه في الأمة — بهذا كله استطاع أن يكون بحق وجدارة رائد الاصلاح الفكري أو الفكر الاصلاحى في المغرب.